Journal Of the Iraqia University (72-5) December (2024)

ISSN(Print): 1813-4521 OnIine ISSN:2663-7502
Journal Of the Iraqia University
available online at: https://www.mabdaa.edu.iq

مفهوم الفصاحة في النقد العربي القديم السيوطي أنموذجاً

نضال سامي صالح الجامعة العراقية / كلية التربية للبنات / قسم اللغة العربية

أ.د. محمد حسين توفيق

The concept of eloquence in ancient Arabic criticism, Al-Suyuti, as a model

Nidhal Sami Salih
Prof .Dr : Muhammad Hussein Tawfiq
Iraqi University/College of Education for Girls/Department of Arabic Language
Nedalsami438@gmail.com

المستخلص

يعدّ مصطلح الفصاحة من المصطلحات النّقديّة الّتي اهتمّ بها النّقاد القدماء، وقد أولى السيوطي هذا المصطلح اهتماماً كبيراً حيث ذكره في النّظم وعلق عليه في شرحه، وقد ذكر في كتابه هذا عدداً كبيراً من المصطلحات النقدية والبلاغية التي تمّ ابتكارها من قبل سابقيه، فضلاً عن ذكره لعدد من المصطلحات المبتكرة والجديدة كلياً، وقد تتبع البحث هذه المصطلحات ومن بينها مصطلح الفصاحة تتبعاً تاريخياً وذلك بالاستعانة بالمنهج الوصفي التحليلي الّذي يقوم على أساس تتبع الظاهرة وتحليلها واستنباط النتائج منها.الكلمات المفتاحية: مصطلح ، الفصاحة، شرح، عقود الجمان، السيوطي.

ABSTRACT

The term eloquence is one of the critical terms that ancient critics were interested in. Al-Suyuti paid great attention to this term as he mentioned it in systems and commented on it in his explanation. In his book, he mentioned a large number of critical and rhetorical terms that were invented by his predecessors, in addition to mentioning a number of One of the innovative and completely new terms. The research traced these terms, including the term eloquence, historically, using the descriptive and analytical approach, which is based on tracking the phenomenon, analyzing it, and deriving results from it.

Keywords: term, eloquence, explanation, contracts of Al-Juman, Al-Suyuti.

مقدمة:

أولى السيوطي في كتابه شرح عقود الجمان أهمية كبيرة للمصطلح البلاغي والنقدي، واهتم كثيراً بتحديد مفاهيم هذه المصطلحات، مع بيان مرجعيّة كل مصطلح من هذه المصطلحات بالإشارة إلى صاحبه، وتحديده، ووضع حدّ له.وقد ذكر في كتابه هذا عدداً كبيراً من المصطلحات النقدية والبلاغية التي تمّ ابتكارها من قبل سابقيه، فضلاً عن ذكره لعدد من المصطلحات المبتكرة والجديدة كلياً. ونذكر من هذه المصطلحات بعضاً منها على سبيل المثال لا الحصر: الفصاحة، البلاغة، التفريع، التفضيل، حسن البيان، التصحيف، المقابلة، الجمع، التفسير، التفتن، التكرار، الالتفات، المشاكلة، الحذف، الإطناب، الاكتفاء، التغليب، الفرائد، التقسيم، الاحتراس، الاشتقاق، التشريع، التمكين، الاستعارة، التورية، التلميح، اللف والنشر، وغيرها الكثير الكثير.بلغ عددها ما يقارب ١٢٠ مصطلحاً، كرر بعضها في مواضع عدة، ولم يقف عند ذكرها وتكرارها فقط، بل عرّفها، ذاكراً بعض أسرارها ولطائفها البلاغية، مما يدلّ على أنّ السيوطي في كتابه يكون جامعاً للتحليل، والتذوّق، عن طريق إظهار الأغراض البلاغية والنقدية.

ومن بين تلك المصطلحات مصطلح الفصاحة فقد أولى النقد القديم هذا المصطلح اهتماماً كبيراً.

- **الفصاحة لغةً:**الأصل اللغوي لمصطلح الفصاحة في معاجم اللغة العربية هو (فصح)، وقد وردت لفظة الفصاحة بمعانٍ عدة منها قول الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٠هـ) في معجمه: "رجلٌ فصيح، وفصح فصاحة، وأفصح الرجل القول، فلما كثر وعُرف أضمروا القول واكتفوا بالفعل .. ويُقال في وصف العجم: أفصح، وإن كان بغير العربيّة كقول الشاعر أبي النجم العجلي: أعجم في أدانها فِصيحا، يعني صوت الحمار".(الفراهيدي، العين، ١٩٨٨م) ويقال: أفصحَ الصبحُ إذا بدا ضوءه، قالوا: وكل واضح مُفصح، ويقال إنّ الأعجم مالا ينطق، والفصيحُ ما ينطق" (ابن فارس، مقاييس اللغة، ١٩٧٩م)وجاء في معجم أساس البلاغة للزمخشري (ت ٥٣٨هـ): "فصحَ: سقاهم لبناً فصيحاً، وهو الذي أخذت رغوته أو ذهب لباؤه وخلص منه، ومن المجاز سرينا حتى أفصحَ الصبح، وهذا يومٌ مُفصحٌ وفِصح: أي لا غيم فيه ولا قر، وأفصحَ الأعجمي: تكلّم بالعربيّة وفَصُحَ، انطلق لسانه بها وخلصت لغتهُ من اللكنة" (الزمخشري، أساس البلاغة، ١٩٩٨م)وجمع ابن منظور (ت ٧١١هـ) أهم ما قاله أصحاب المعاجم فقال: "فَصحَ: الفصاحة، البيان، فصحَ الرجلُ فصاحةً فهو من قومٍ فُصحاء، تقول رجلٌ فصيح وكلامٌ فصيحٌ أي بليغ، ولسانه فصيح أي طلق، وفصُحَ الأعجمي فصاحة: تكلّم بالعربية وفُهم عنه، وقيل جادت لغته حتى لا يلحن، وأفصحَ اللبنُ: ذهبَ اللبأ عنه" (ابن منظور، لسان العرب، ١٩٩٤م) وعليه يمكن القول أنّ أصل مادة (فصح) هو النقاء والخلوص، ولكنها في المعاجم العربية تتنوع إلى معانٍ عديدة منها: البيان، وحسن الكلام، وطلاقة اللسان، والسلامة من اللحن.
- **الفصاحة في النقد القديم:**ويعدّ (الكتاب) لمؤلفه ***سيبويه*** (١٨٠هـ)، من أقدم الكتب النحوية التي وصلت إلينا، كما ويعدّ في اعتقاد الكثيرين من أهمّ وأكثر الأعمال أصالة في ميادين اللغة العربيّة، ولكن وعلى الرغم من تلك الأهمية كلها إلا أننا لم نجد تعريفاً واضحاً بيّناً يخصّ مفهوم الفصاحة، لكننا يمكن أن نعثر على بعض العبارات التي تتضمّن بعض المفردات المنتمية إلى مادة (فصح) (صالح، ٢٠٠٧م،)، نذكر منها: "سمعنا فصحاء العرب يقولون" (سيبويه، ١٩٨٨،ص ٤٧٧) و"سمعنا ذلك من فصحاء العرب" (سيبويه، ١٩٨٨،ص٢)، ومثل هذه العبارات يمكن إرجاعها إلى سياق واحد وهو السماع لهؤلاء العلماء (صالح، ٢٠٠٧، ٣١)كما يمكننا إيجاد بعض العبارات الأخرى مثل "سمعنا ممن يوثق بعربيّته" (سيبويه، ١٩٨٨، ص٣٦) وعبارة "قوم من قيس وأسد ممن ترضى عربيّتهم" (سيبويه، ١٩٨٨، ج٢، ص٢٦٢)، لها المعنى نفسه، بمعنى أنّ هؤلاء كلّهم يشكلون جماعة محددة من العرب. والواضح أنّ سيبويه قصدَ بفصحاء العرب، أولئك الذين لم تتغيّر لغتهم، أي لم يصبها الخطأ أو اللحن، فللفصاحة عنده مدلولان هما:الأول : صفة من يرتضي لغتهم كلّ من ينطق بنفس اللغة على أصلها من دون تغيير، ومن ثمّ الثاني : عدم وجود أي شيء في لغته لا ينتمي إلى لغة هؤلاء الناطقين، وعليه فإنّ كلا المدلولين يخص السلامة اللغوية (صالح، ٢٠٠٧، ص٣٥). فضلاً عن أنّ الكتابَ يحتوي بكثرة على ألفاظ تدل على الجودة، أما بالنسبة إلى صلة الجودة بالفصيح، فلا يوجد نصّ واضح وصريح يبيّن العلاقة بينهما، لكن يمكن العثور على إشارات تدلّ على وجود هذه الصلة من مثل قول سيبويه واصفاً اللغة الحجازية بالجودة: "وهي اللغة العربيّة القديمة الجيّدة" (سيبويه، ١٩٨٨، ج٤، ص٤٣٣)ويعد ***الجاحظ (ت٢٥٥هـ)*** من أوائل البلاغيين الذين وضعوا أصول الدرس البلاغي العربي، ومصطلح الفصاحة عنده متفرّقاً في طيات كتابه (البيان والتبيين)، فنجده يقابل لفظ الفصاحة باللكنة، قال: "فمن زعم أنّ البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل، جعل الفصاحة واللكنة والخطأ والصواب والإغلاق، والإبانة، والملحون، والمعرب كله سواء، وكل بياناً، وكيف يكون ذلك كله بياناً" (الجاحظ، ٢٠٠٣، ج١، ص١٦٢)، ومعنى ذلك أنّ: الخطأ والصواب، والإغلاق والإبانة، والملحون والعرب تتضمن كل واحدة منها ضدّين، والفصاحة هنا هي: الصواب، والإبانة، والإعراب، والخلوص من اللكنة.(صالح، ٢٠٠٧م، ص٣٤)كذلك قال الفصاحة تقتضي فهماً لما هو فصيح من الكلام وحده، قال: "كلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور، كانت أنفع وأنجع، والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله عز وجل يمدحه إليه ويحث عليه، بذلك نطق القرآن، وبذلك تفاخر العرب وتفاضلت أصناف العجم".(الجاحظ، ٢٠٠٣، ج١، ص٥٧)كذلك أنّ الفصاحة عنده هي منح الأحرف حقّها في النطق، أي التخلص من اللثغة، قال: من أجل الحاجة إلى حسن البيان، وإعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة رام أبو حديفة، واصل بن عطاء إسقاط الراء من كلامه" (الجاحظ، ٢٠٠٣م، ج١، ص١٥) وعليه فإنّ الخلوص في الفصاحة يتخذ مسارين عند الجاحظ: الأول خلوص المتكلم مما يعيب منطقه، والثاني خلوص كلامه مما يعيب سلامته. وفي نصّ من نصوصه (الجاحظ، ٢٠٠٣م، ج ١، ص٣٧٨- ٣٧٩) لا يحصر الفصاحة فقط في السلامة اللغوية الفطرية، بل يتخطى ذلك إلى الفصاحة البلاغية.وكان الكلام الفصيح عند ابن طباطبا (٣٢٢هـ) هو ما وافق الكلام البدوي ولم يمتزج به كلام حضري فنجده يقول: "وَكَذَلِكَ الشَّاعرُ إِذا أَسَّسَ شِعْرَهُ على أَن يَأْتِي فِيهِ الْكَلَام البَدَوِيّ الفَصِيح لم يَخْلطْ بِهِ الحَضَرِيَّ المُوَلَّد، وَإِذا أَتَى بلَفْظَةٍ غريبةٍ أَتْبَعَهَا أَخَوَاتِها. (ابن طباطبا، ج١، ١٨٨٥م، ص٨)، فكان الكلام الفصيح عنده هو الكلام البدوي الّذي لم تختلط به أو تشوبه لهجة الحضر.وجعل قدامة بن جعفر (٣٣٧هـ) الفصاحة من نعوت اللفظ الأنيق فهو يقول: "أن يكون سمحاً، سهل مخارج الحروف من مواضعها، عليه رونق الفصاحة، مع الخلو من البشاعة"،(ابن جعفر، ١٨٨٥، ج١، ص٨) فلم تكن الفصاحة عنده

مصطلحاً مستقلاً بقدر ما كان وصفاً للفظ الأنيق ولموضع استخدامه وتوظيفه في الشعر حتى يحسن.ورأى الآمدي (٣٧٠هـ) أنّ دخول بعض الألفاظ الحضرية في كلام البدو لا ينفي فصاحته فيقول: "فإن اختارأن يأتي بما لايستعمله أهل الحضر فمن سبيله أن يجعله من المستعمل في كلام أهل البدو دون الوحشيّ الذي يقلّ استعمالهم إياه، وأن يجعله متفرقاً في تضاعيف ألفاظه، ويضعه في مواضيعه، فيكون قد اتسع مجاله بالاستعانة به، ودلّ على فصاحته وعلمه، وتخلصّ من الهجنة"،(الآمدي، ١٩٩٤م، ج١، ص٤٧١) فالفصاحة هي السمة التي تغلب على كلام العربي وحتى الآمدي لم يتعامل مع المصطلح إلا بوصفه سمة ووصفاً.وعدّ القاضي الجرجاني (٣٩٢هـ) الفصاحة أداة مفاضلة بين القبيلة وأختها لنجده يقول: وأنت تعلم أن العرب مشتركة في اللغة واللسان، وأنها سواء في المنطق والعبارة، وإنما تَفضُل القبيلةُ أختها بشيء من الفصاحة. ثم تجد الرجل منها شاعراً مُفْلقاً، وابنَ عمه وجار جَنابه ولصيقَ طُنُبه بكيئاً مفحَماً"(الجرجاني، ١٩٠، ج١، ص١٦) فالعرب تشترك في اللغة ولكنها لا تشترك بالفصاحة التي تعدّ موضعاً للتفاضل بين القبيلة وأختها وهي التي تحدد معيار إتقان الشعر من عدمه.أما ***ابن جني*** (ت ٣٩٢هـ)، ومن خلال كتابه (الخصائص)، الذي يبتعدُ في موضوعه عن تناول مفهوم الفصاحة بوصفه مصطلحاً أو علماً مستقلاً، إلا أنه يمكن إيجاد ألفاظ وعبارات تدل على مادة (فصح) ودلالاتها، فنجده قد عني بالفصاحة يقول: "سألت مرة الشجري أبا عبد الله ومعه ابن عم له دونه في فصاحته، وكان اسمه غصناً، فقلت لهما: كيف تحقران: حمراء؟ فقالا: حميراء فقلت فسوداء، فقالا سويداء، ووالليت في ذلك أحرفاً وهما يجيبان الصواب، ثمّ دسستُ في ذلك علياء، فقال غصن، عَليباء، وتبعه الشجري، فلما همّ بفتح الباء تراجع كالمذعور ثم قال: آه عُليبى" (ابن جني، ٢٠٠٨م ، ج٢، ص٣٦،)، والملاحظ من قوله أنه كان يقوم بامتحان فصاحة الأعراب من أجل أن ينتقي الفصيح منها.كذلك نجده في مواضع أخرى يكثر من الاستشهاد بالقرآن الكريم، ويجعل منه أفصح الكلام، واضعاً إياه في المرتبة الأولى من حيث الفصاحة، يقول: "وكذلك حذف المضاف قد كثر، حتى إنّ في القرآن – وهو أفصح الكلام– منه أكثر من مائه موضع، بل ثلاثمائة موضع، وفي الشعر منه ما لا أحصيه" (ابن جني، ٢٠٠٨م ، ج١، ص٣٤) كذلك أنه ينوّه إلى الحذر في تمييز الفصيح من غيره، قال: "فإياك أن تخلد إلى كلّ ما تسمعه، بل تأمل حال مورده وكيف موقعه من الفصاحة فحكم عليه وله" (ابن جني، ٢٠٠٨م ، ج١، ص١٠)، وفي قوله دعوة إلى عدم قبول الظواهر كما هي عليه، بل ينبغي تأمل موردها وموقعها من الفصاحة، ومن ثمّ يأتي الحكم عليه. فضلاً عن أنه يرى وقوع بعض ما هو رديء في كلام الفصيح، يقول: "ولا أدفع أيضاً من هذا أن يسمع الفصيح لغة غيره مما ليس فصيحاً، وقد طالت عليه وكثر لها استماعه فسرت في كلامه ثم تسمعها، وقد قويت عندك في كل شيء من كلامه غيرها فصاحته، فيستهويك ذلك إلى أن تقبلها منه على فساد أصلها الذي وصل إليها منه" (ابن جني، ٢٠٠٨م ، ج١، ص٣٦)ويجد أنّ أفصح لغات العرب هي لغة الحجاز، نتيجة لسلامتها من العيوب التي أصابت اللغات الأخرى، يقول: "ألا ترى أننا نقول في الأمر من المضاعف في التميمة نحو شُدّ، أنّ الأصل أشدد، ومع هذا، فهكذا لغة أهل الحجاز وهي اللغة الفصحى القدمى".(ابن جني، ٢٠٠٨م ، ج١، ٢٥٩_٢٦٠)وأفاد ***أبو هلال العسكري (٣٩٥هـ)*** من آراء الذين سبقوه، فجمعها ورتّبها، وزاد عليها بعضاً من الشروح، والاستشهاد بالأمثلة، وخاصة من كتاب البيان والتبيين للجاحظ، فنجده في كتابه (الصناعتين) يبيّن أهمية البلاغة والفصاحة ومعرفتها، يقول: "إنّ الإنسان إذا أغفل علم اللغة وأخلّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصّه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب" (العسكري،١٩٩٨م، ص١) كما نراه يقدّم رأيين في الفصاحة، الأول: "قال القوم: إنها من قولهم: أفصح فلام عما في نفسه إذا أظهره، والشاهد على أنها هي الإظهار قول العرب: أفصح الصبح إذا أضاء، وأفصح اللبن إذا انجلت عنه رغوته فظهر، وإذا كان الأمر على هذا فالفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد وإن اختلف أصلهما، لأنّ كل واحد منهما، إنما هو الإبانة عن المعنى والإظهار له" (العسكري، ١٩٩٨، ص٧)الثاني: "قال بعض علمائنا: الفصاحة تمام آلة البيان فلهذا لا يجوز أن يسمّى الله تعالى فصيحاً، لأنّ الفصاحة تتضمن معنى الآلة، ولا يجوز على الله تعالى الوصف بالآلة ويوصف كلامه بالفصاحة لما يتضمّن من تمام البيان، والدليل على ذلك أنّ الألثغ والتمتام لا يسميان فصيحين، لنقصان آلتهما عن إقامة الحروف".(العسكري، ١٩٩٨م، ص٨) ويرى ***الباقلاني*** (ت٤٠٠_ ٤٠٣هـ) أنّ نظم القرآن يفوق كل نظم فصاحةً وبياناً "فهلا قلتم إن القرآن من نظمه لقدرته في الفصاحة على مقدار لا يبلغه غيره؟ قيل: قد علمنا أنه لم يتحدَّهم إلى مثل قوله وفصاحته"،(الباقلاني، ١٩٩٧م، ج١، ص٢٩١) فالقرآن الكريم يبلغ من سمات الفصاحة ما لا يبلغها غيره من كلام العرب.وقرن ***ابن رشيق القيرواني (ت٤٥٦هـ)*** الفصاحة بكلام الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم فقال: "لأن الله تعالى إنما بعث رسوله أمياً غير شاعر إلى قوم يعلمون منه حقيقة ذلك، حين استوت الفصاحة، واشتهرت البلاغة؛ آية للنبوة، وحجة على الخلق، وإعجازاً للمتعاطين، وجعله منثوراً ليكون أظهر برهاناً لفضله على الشعر،(القيرواني، ١٩٨١م، ج١، ص٢٠) فالقرآن الكريم هو مثال الفصاحة وآيتها.

واستثمر ***ابن سنان الخفاجي (ت٤٦٦هـ)،*** جهود من سبقه من النحاة، واللغويين، والبلاغيين، وكانت له خطوة كبرى في الفصاحة، فأفرد لها فصولاً في كتابه (سر الفصاحة) متحدثاً عن سمات الحروف، وفصاحة اللفظ المفرد، وفصاحة الألفاظ المؤلفة، ووضع لها شروطاً في الإفراد والتركيب،

وكانت الفصاحة عنده تعني البيان والظهور. (اتحاد الجامعات العربية، ٢٠١٣م، ص١٢)وتناول ***عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ)***، فصاحة المعاني التي صارت مسألة أكثر وضوحاً وعمقاً على يده، مستغلاً بداية كتابه للتحقيق في الفصاحة، والبلاغة، والبيان، قال: "ولم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة، وفي بيان المغزى في هذه العبارات، وتفسير المراد بها"، (الجرجاني، ١٩٩٢م، ص٣٦)مشيراً إلى أنّ اللفظة لا وزن لها في بيان أو فصاحة أو بلاغة "وهل تجد أحداً يقول هذه الكلمة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملاءمة معناها لمعنى جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها"،(الجرجاني، ١٩٩٢، ص٤٤) ويتبيّن من قوله أنّ الفصاحة لا تكون في اللفظ بل في المعنى، ولا قيمة كبرى للكلمة المفردة، إلا إذا انتظمت في سياق وأعطت معنى معيّن، ويؤكد على ذلك بقوله: "إنّ الفصاحة تكون في المعنى أنّ المزيّة التي من أجلها استحق اللفظ الوصف بأنه فصيح هي المعنى دون اللفظ".(الجرجاني، ١٩٩٢م، ص٤٢٣)كذلك أننا نجده تعرّض لكلام العلماء في الفصاحة، مقرّاً أنّ كلامهم لم يكن تصريحاً بل كان رمزاً وتعريضاً، مؤكداً أنّ العلماء السابقين لم يقصدوا فصاحة اللفظ في حد ذاته، بل قصدوا أنها في اللغة أثبت، وفي استعمال الفصحاء أكثر، وأنها أجرى على مقاييس اللغة، والقوانين التي وضعوها، (الجرجاني، ١٩٩٢م، ص٤٥٦_٤٥٧) فضلاً عن أنه فرّق بين مظهرين للفصاحة، أحدهما يمكن إدراكه بيسر وسهولة: " فلا يجوز لنا أن نعتدّ في شأننا هذا بأن يكون المتكلم قد استعمل من اللغتين في الشيء الواحد ويقال: إنه أفصحهما، أو بأن يكون قد تحفظ مما تخطئ فيه العامة ولا بأن يكون قد استعمل الغريب"، الجرجاني، ١٩٩٢م،ص٤٠٠) والثاني يمكن إدراكه بعد تأمل وفهم، يقول: "وذهب عنهم أن ليس هو من الفصاحة التي يعنينا أمرها في شيء، وأن كلامنا في فصاحة تجب للفظ من أجل شيء يدخل في النطق، ولكن من أجل لطائف تدرك بالفهم". الجرجاني، ١٩٩٢م، ص٤٠١)

أما ***السكاكي (ت٦٢٦هـ)***، فقد تناول مفهوم البلاغة في كتابه (مفتاح العلوم)، مقسّماً إياها على قسمين: الأول راجع إلى المعنى وهو خلوص الكلام من التعقيد، والثاني راجع إلى اللفظ وهو أن تكون الكلمة عربيّة أصيلة وعلامة ذلك أن تكون على ألسنة الفصحاء من العرب الموثوق بعربيّتهم (السكاكي، ١٩٨٧، ص٢٥) وبعدها ذكر أنّ الفصاحة ترجع إلى حسن الكلام، أي التزيين والتحسين، يقول: "وها هنا وجوه مخصوصة كثيراً ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام، فلا علينا نشير إلى الأعراف منها، وهي قسمان: قسم يرجع إلى المعنى وقسم يرجع إلى اللفظ"،(السكاكي، ١٩٨٧، ص٢٨) وهو بذلك الكلام يقصد المحسنات البديعية.وتتبّع ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ)، في كتابه (المثل السائر) أقوال وآراء العلماء في الفصاحة، مؤسساً دراسته على ما أتى به ابن سنان الخفاجي، مضيفاً بعضَ الآراء التي تخصّه، فقال: "غاية ما يقال في هذا الباب أنّ الفصاحة في اللغة هي الظهور والبيان في أصل الوضع اللغوي، ثمّ إنهم يقفون عند ذلك، وبهذا القول لا تتبيّن حقيقة الفصاحة" (ابن الأثير، ١٩٦٠م، ص٦٤) منتهياً إلى القول إنّ "الكلام الفصيح هو الظاهر البيّن، وأعني بالظاهر البيّن أن تكون ألفاظه مفهومة لا يحتاج في فهمها إلى استخراج من كتاب لغة، وإنما كانت بهذه الصفة لأنها تكون مألوفة الاستعمال بين أرباب النظم والنثر، دائرة في كلامهم".(ابن الأثير، ١٩٦٠م، ص٦٥)

كذلك أشار إلى أنّ الفصاحة تخصّ اللفظ دون المعنى، فقال: "لو كانت الفصاحة لأمر يرجع إلى المعنى لكانت هذه الألفاظ في الدلالة عليه سواء ليس منها حسن ومنها قبيح، ولما لم يكن كذلك علمنا أنها تخصّ اللفظ دون المعنى" (ابن الأثير، ١٩٦٠م، ص٦٧)ووقف ***القزويني (ت٧٣٩هـ)***، أمام موروث غزير في بحثه عن الفصاحة، فقام بنقل أقوال السكاكي، مقسّماً الفصاحة إلى: فصاحة المفرد، وفصاحة الكلام، وفصاحة المتكلم.

وقد ذكر أنّ الفصاحة حتى تكون صفة للمفرد لابدّ من تخلّصها من تنافر الأحرف، يقول: "التنافر منه ما تكون الكلمة بسببه متناهية في الثقل على اللسان، وعسر النطق بها، كما روي أنّ أعرابياً سئلَ عن ناقته فقال: تركتها ترعى الهعخع". (القزويني، ٢٠٠٣م، ص١٣)أما فصاحة الكلام، فتعني "خلوصه من ضعف التأليف، وتنافر الكلمات، والتعقيد مع فصاحتها" (القزويني، ٢٠٠٣م، ص١٥) وقد أضاف أن فصاحة الكلام تعني "خلوصه مما ذكر من كثرة التكرار وتتابع الإضافات".(القزويني، ٢٠٠٣م،ص١٨)أما فصاحة المتكلم، "فهي ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح"،(القزويني، ٢٠٠٣م، ١٩_٢٠) وعليه فقد ربط فصاحة المتكلم بفصاحة كلامه.ويعرّف العلوي (٨٠٨هـ) الفصاحة بقوله: "لفصاحة من عوارض الألفاظ، لكن ليس بالإضافة إلى مطلق الألفاظ فقط، ولكن بالإضافة إلى دلالتها على معانيها، فتكون الفصاحة عبارة عن الأمرين جميعا مطلق الألفاظ ودلالتها على ما تدل عليه من معانيها المفردة والمركبة"، (العلوي، ٢٠٠٣، ج١، ص٧٠) فهي من عوارض الألفاظ عنده بالإضافة إلى معانيها وهي تعبر عن مطلق اللفظ ومعناه.

- **الفصاحة عند السيوطي:**

يُوصَفُ بِالْفَصَاحَةِ المُرَكَّبُ ... وَمُفْرَدٌ وَمُنْشِئٌ مُرَتِّبُ
وَغَيْرَ ثَانٍ صِفْهُ بِالْبَلَاغَهْ ... وَمِثْلُهَا فِي ذَلِكَ البَرَاعَهْ
فَصَاحَةُ الْمُفْرَدِ أَلَّا تَنْفُرَا ... حُرُوفُهُ كَهُعْخُعٍ وَاسْتَشْزَرَا

وَعَدَمُ الخُلْفِ لِقَانُونٍ جَلِي ... كَـ"الْحَمْدُ للهِ العَلِيِّ الأَجْلَلِ

وَفَقْدُهُ غَرَابَةً قَدْ أُرْتِجَا ... كَـ"فَاحِمًا وَمَرْسِنًا مُسَرَّجَا

قِيلَ وَفَقْدُ كُرْهِهِ فِي السَّمْعِ ... نَحْوُ جِرِشَّاهُ وَذَا ذُو مَنْعِ

وَفِي الْكَلَامِ فَقْدُهُ فِي الظَّاهِرِ ... لِضَعْفِ تَالِيفٍ وَلِلتَّنَافُرِ

فِي الكَلِمَاتِ وَكَذَا التَّعْقِيدُ مَعْ ... فَصَاحَةٍ فِي الكَلِمَاتِ تُتَّبَعْ

فَالضَّعْفُ نَحْوُ قَدْ جَفَوْنِي وَلَمِ ... أَجْفُ الْأَخِلَّاءَ وَمَا كُنْتُ عَمِي

وَذُو تَنَافُرٍ أَتَاكَ النَّصْرُ ... كَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

كَذَاكَ أَمْدَحُهُ الَّذِي تَكَرَّرَا ... وَالثَّالِثُ الخَفَاءُ فِي قَصْدٍ عَرَا

لِخَلَلٍ فِي النَّظْمِ أَوْ فِي الِانْتِقَالْ ... إِلَى الَّذِي يَقْصِدُهُ ذَوُو الْمَقَالْ

قِيلَ وَأَلَّا يَكْثُرَ التَّكَرُّرُ ... وَلَا الْإِضَافَاتُ وَفِيهِ نَظَرُ

وَحَدُّهَا فِي مُتَكَلِّمٍ شُهِرْ ... مَلَكَةٌ عَلَى الْفَصِيحِ يَقْتَدِرْ

أما مفهوم الفصاحة عند ***السيوطي (ت٩١١هـ)***، فذكرها بمثل ما تحدّث عنها القزويني، لكنه زادَ وأضاف إليها بعضاً مما أهمله القزويني: فقال: "الفصاحة في المفرد أن يخلص من ثلاثة أمور أحدها: تنافر الحروف، وهو قسمان، ذكرهما في الإيضاح، وأهمل في التلخيص الأول، وذكرته من زيادتي"،(السيوطي ٢٠١١، ص٤٥) معللاً ذلك بأنّ المركّب يشمل الكلام المفيد، وغير المفيد من المركبات الناقصة، التي توصف بالفصاحة، مع أنها لا تدخل في الكلام، ولا في المفرد، لذا عُبّر بلفظ (المركّب) ليشمل هذه المركبات الناقصة"،(السيوطي ٢٠١١، ص٤٣)إلا أننا نجد السيوطي يرجع إلى استعمال لفظة الكلام عندما تكلم عن فصاحة الكلام، وذكر أنها تكون بخلوصه من أمور ثلاثة قائلاً: "والفصاحة في الكلام أن يخلص من ثلاثة أمور بعد رعاية الفصاحة في مفرداته""،(السيوطي ٢٠١١، ٤٧) ومن إضافاته قوله: "والبراعة مثل البلاغة، فيقال: متكلم بارع وكلام بارع، ولا يقال كلمة بارعة، وقد حدّها القاضي أبو بكر في الانتصار بما يقرب من حد البلاغة، وأهملها الجمهور، وذكرها هنا من زوائدي" "،(السيوطي ٢٠١١، ص٤٥)وقد ذكر في معرض كلامه عن فصاحة المفرد شرطاً رابعاً متابعاً فيه مؤلف التلخيص والإيضاح، وهو الخلوص من الكراهة في السمع، مستشهداً بقول المتنبي: كريمُ الجرشيّ شريفُ النسبْ،(السقا، الأبياري، شلبي، ١٩٣٨، ج١، ص٢٧٧) معلّقاً بالقول: "إنّ السمع يمج لفظ الجرشيّ وهي النفس، وفي هذا نظر لأنّ الكراهة إن كانت لاستغرابه، فقد دخلت في الغرابة، أو من جهة الصوت فلا تعلق لها بالفصاحة، لأنّ السمع قد يستلذ بغير الفصيح لحسن الصوت وبالعكس" (السيوطي، ٢٠١١، ص٤٧) والجدير بالذكر أنّ هذا الرأي مأخوذ عن ابن السبكي(ت ٧٧١هـ) ، (السبكي، ج١، ٢٠٠٣م، ص٩١)لكنّ السيوطي لم يذكر ذلك، وعدّه نوعاً من الردّ على ابن سنان الخفاجي، الذي وجد أنّ سرّ الفصاحة "أن تجد لتأليف اللفظة في السمع حسناً ومزيّة على غيرها".(الخفاجي، ١٩٨٢م، ص٥٥)ويكمل السيوطي حديثه عن فصاحة الكلام، سالكاً نهج مؤلف التلخيص والإيضاح، غير أنّه ذكر مثالاً في ضعف التأليف لم يذكره صاحب التلخيص والإيضاح، مشيراً إلى أنه قد نقله عن السبكي تقليداً له في بداية الأمر، إلا أنه انتبه إلى عدم صلاحه مثالاً لذلك فيما بعد، والمثال هو قول الشاعر: (جفوني ولم أجْفُ الأخلاّءَ إنني) ، وتعليله لعود الضمير من جفوني على الأخلاء وهو متأخر عنه، (السيوطي، ٢٠١١م، ص٤٧)وعليه فإنّ السيوطي كان على وعي تام فيما يأخذه أو ينقله عن غيره، ولم يكن مقلداً أعمى، بل كان يناقش، ويرد، ويستحسن ويذم.وفي تنافر الكلمات يقوم السيوطي بجمع آراء مجموعة من العلماء ويناقش أقوالهم في بيت أبي تمام: (أبو تمام، ٢٠١٩م، ج٢، ص١٦٦)

كريمٌ متى أمدحهُ أمدحْهُ والورى معي وإذا ما لُمتُهُ لمتهُ وحدي

فقال: "واختلف في وجه التنافر فيه، فقال في الإيضاح في قوله أمدحه ثقل لما بين الحاء والهاء من التنافر لتقاربهما، ورُدّ بوروده في القرآن قال تعالى: ﴿فسبّحْهُ﴾ (الطور، ٤٩)، وقيل لاجتماعها بعد فتحة، والآية سالمة من ذلك، وقيل الثقل بين الحاء والهاء والهمزة، واعترض بأنه تنافر في الحروف لا في الكلمات وجزم الخفاجي،(الخفاجي، ١٩٨٢م، ١٠٢) وحازم الأندلسي وغيرهما، وتبعهم ابن السبكي (الزركشي، ج١، ٢٠٢١م، ص٧٨) بأنه سببه تكرار أمدحه، وقد أشرت إلى ذلك في النظم، وهو من زيادتي، وليس لك أن تقول سيأتي أنّ بعضهم شرط الخلوص من الكرار، وأنه مردود، لأنّ ذلك مطلق التكرار، وهذا تكرير أمدحه خاصة لما فيه من الثقل بين الحاء والهاء" (السيوطي، ٢٠١١م، ص٤٨) وعلى الرغم من أنّ السيوطي لم يقم بإبداء رأيه بشكل خاص، كما أنه لم يقم بمناقشة تلك الآراء التي ذكرها، إلا أنه أجادَ في جمعها في موضع واحد، وهو من الإيجابيات التي توفّر على الباحثين والدارسين الكثير من الجهد والمشقة.كذلك فقد أضاف في فصاحة الكلام على شروط البلاغيين من خلو الكلام

من كثرة التكرار، وأيد القزويني بعد تأييده هذه الشروط، بجملة (وفيه نظر)، مضيفاً مجموعة من الأدلة والبراهين التي تؤيد عدم موافقته على هذه الشروط، مستشهداً بقول القزويني: "وفيه نظر لأنّ ذلك إن أفضى باللفظ إلى الثقل على اللسان فقد حصل الاحتراز عنه بما تقدم، وإلا فلا تُخل بالفصاحة...." ، (القزويني، ٢٠٠٣م، ص١٨)والجدير بالذكر أنّ السيوطي قد أضاف من الشواهد ما لم يوجد في الإيضاح، أو التلخيص، أو عروس الأفراح، نذكر مثالاً على ذلك قوله تعالى: ﴿والشمس وضحاها﴾.(الشمس: ١)منتهياً إلى أنّه ما وردَ في الفصاحة من "تمييز الفصيح من غيره، فيعرف من علم اللغة وهو الغرابة، وبعضه من علم النحو وهو ضعف التأليف والتعقيد اللفظي، وبعضه يدرك بالحس وهو التنافر".(السيوطي، ٢٠١١م، ص٥٤)

خاتمة:

كان للنقد القديم رأيه في الفصاحة ودورها في صقل الكلام والتعبير عن المعنى، وقد جاءت آراء السيوطي متأثرة بمن قبله ولا سيما القزويني فنجد أنه:

- ذكر الفصاحة بمثل ما تحدّث عنها القزويني، لكنه زادَ وأضاف إليها بعضاً مما أهمله القزويني.
- أضاف في فصاحة الكلام على شروط البلاغيين من خلو الكلام من كثرة التكرار
- ومن إضافاته قوله: "والبراعة مثل البلاغة، فيقال: متكلم بارع وكلام بارع، ولا يقال كلمة بارعة.
- استخدم مصطلحي الكلام والمفرد في حديثه عن الفصاحة.

المصادر والمراجع:

١. ابن الأثير، المثل السائر، تح: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة . القاهرة، ١٩٦٠م
٢. ابن جعفر، قدامة، نقد الشعر، مطبعة الجوائب – قسطنطينية، الطبعة: الأولى، ١٨٨٥م.
٣. ابن جني، الخصائص، دار الكتب العلمية الطبعة: الثالثة، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨م
٤. ابن رشيق القيرواني،العمدة في محاسن الشعر، لمحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، الطبعة: الخامسة، ١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م
٥. ابن طباطبا، عيار الشعر، تح: عبد العزيز بن ناصر المانع، مكتبة الخانجي – القاهرة
٦. ابن فارس، مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، عام النشر، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.
٧. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٩٩٤م.
٨. أبي تمام، ديوان أبي تمام، دار صادر، بيروت، ٢٠١٩م.
٩. الآمدي، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري ، مكتبة الخانجي – الطبعة الأولى، ١٩٩٤ م.
١٠. الباقلاني، إعجاز القرآن، المحقق: السيد أحمد صقر، دار المعارف – مصر، الطبعة: الخامسة، ١٩٩٧م.
١١. التناسب في كتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي، مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب، المجلد ١٠، العدد٢ ب،٢٠١٣م
١٢. الجاحظ، البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، عام النشر، ٢٠٠٣م.
١٣. الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.
١٤. الخفاجي، ابن سنان، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ_١٩٨٢م
١٥. الزركشي، حلي الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، دار النابغة للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٢١م.
١٦. الزمخشري،أساس البلاغة، تح: باسل عيون السود، دار ومكتبة الهلال، القاهرة، ١٩٩٨م.
١٧. السبكي، بهاء الدين، ينظر: عروس الأفراح (شروح التلخيص)، لمحقق: الدكتور عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٣ م.
١٨. السقا، مصطفى – الأبياري، إبراهيم – شلبي، عبد الحفيظ، شرح ديوان المتنبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الأولى (١٣٥٥ – ١٣٥٧ هـ) = ١٩٣٦ – ١٩٣٨ م
١٩. السكاكي، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م
٢٠. سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م.

٢١.السيوطي، شرح عقود الجمان، تح: إبراهيم محمد الحمداني، أمين لقمان الحبار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠١١م.
٢٢.صالح، عبد الرحمن الحاج، السماع اللغوي العلمي ومفهوم الفصاحة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، ٢٠٠٧م.
٢٣.العسكري، الصناعتين، علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية – بيروت، ١٩٩٨م.
٢٤.العلوي، الطراز، المكتبة العنصرية – بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٣م.
٢٥.الفراهيدي،كتاب العين، تح: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال ، ط١، ١٩٨٨م.
٢٦.القاضي الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، ١٩٨٠م.
٢٧.القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر: دار الكتب العلمية– بيروت، ط٣، ٢٠٠٣م.

References

1. Ibn Al-Atheer, The Walking Proverb, edited by: Ahmed Al-Hofy, Badawi Tabana, Nahdet Misr House for Printing, Publishing and Distribution, Al-Fagala - Cairo, ١٩٦٠AD.
2. Ibn Jaafar, Qudamah, Criticism of Poetry, Al-Jawa'ib Press - Constantinople, first edition, ١٨٨٥AD.
3. Ibn Jinni, Al-Khasa'is, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, Third Edition, ١٤٢٩AH - ٢٠٠٨AD
4. Ibn Rashiq Al-Qayrawani, Al-Umdah fi Mahasin Al-Sha'ir, by Muhammad Muhyi Al-Din Abdul Hamid, Dar Al-Jeel, fifth edition, ١٤٠١AH - ١٩٨١AD.
5. Ibn Tabataba, The Caliber of Poetry, edited by: Abdul Aziz bin Nasser Al-Mana, Al-Khanji Library - Cairo.
6. Ibn Faris, Language Standards, edited by: Abdul Salam Muhammad Haroun, Dar Al-Fikr, year of publication, ١٣٩٩AH - ١٩٧٩AD.
7. Ibn Manzur, Lisan al-Arab, Dar Sader - Beirut, third edition - ١٩٩٤A
8. Abi Tammam, Diwan Abi Tammam, Dar Sader, Beirut, ٢٠١٩AD.
9. Al-Amidi, The Balance between the Poetry of Abu Tammam and Al-Buhturi, Al-Khanji Library - First Edition, ١٩٩٤AD.
10. Al-Baqalani, The Miracle of the Qur'an, edited by: Mr. Ahmed Saqr, Dar Al-Maaref - Egypt, fifth edition, ١٩٩٧AD.
11. Proportionality in the book "The Secret of Eloquence" by Ibn Sinan Al-Khafaji, Journal of the Association of Arab Universities for Literature, Volume ١٠, Issue ٢B, ٢٠١٣AD.
12. Al-Jahiz, Al-Bayan wal-Tabyin, Al-Hilal House and Library, Beirut, year of publication, ٢٠٠٣AD.
13. Al-Jurjani, Abdul Qahir, Evidence of the Miracle, investigator: Mahmoud Muhammad Shaker Abu Fahr, publisher: Al-Madani Press in Cairo - Dar Al-Madani in Jeddah, edition: third ١٤١٣AH - ١٩٩٢AD.
14. Al-Khafaji, Ibn Sinan, The Secret of Eloquence, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, Edition: First Edition ١٤٠٢AH _ ١٩٨٢AD
15. Al-Zarkashi, Hali Al-Afrah fi Sharh Takhlees Al-Muftah, Dar Al-Nabigha for Publishing and Distribution, ١st edition, ٢٠٢١AD.
16. Al-Zamakhshari, The Foundation of Rhetoric, ed.: Bassel Ayoun Al-Aswad, Al-Hilal House and Library, Cairo, ١٩٩٨AD.
17. Al-Subki, Bahaa Al-Din, see: The Bride of Weddings (Explanations of Al-Talkhis), edited by: Dr. Abdul Hamid Hindawi, Al-Asriyya Library for Printing and Publishing, Beirut - Lebanon, First Edition, ١٤٢٣AH - ٢٠٠٣AD.
18. Al-Saqqa, Mustafa - Al-Abyari, Ibrahim - Shalabi, Abdul Hafeez, Explanation of the Diwan of Al-Mutanabbi, Mustafa Al-Babi Al-Halabi and Sons Press in Egypt, Edition: First (١٣٥٥- ١٣٥٧AH) = ١٩٣٦- ١٩٣٨
19. Al-Sakaki, Miftah al-Ulum, Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, Beirut - Lebanon, second edition, ١٤٠٧AH - ١٩٨٧
20. Sibawayh, Al-Kitab, edited by: Abdul Salam Muhammad Haroun, Al-Khanji Library, Cairo, third edition, ١٤٠٨AH - ١٩٨٨AD.
21. Al-Suyuti, Sharh Aqwad Al-Juman, ed.: Ibrahim Muhammad Al-Hamdani, Amin Luqman Al-Habbar, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, Beirut, ١st edition, ٢٠١١AD.
22. Saleh, Abdul Rahman Al-Hajj, Scientific Linguistic Listening and the Concept of Eloquence, National Foundation for Printing Arts, Algeria, ٢٠٠٧AD.
23. Al-Askari, Al-Sina'atain, Ali Muhammad Al-Bajjawi and Muhammad Abu Al-Fadl Ibrahim, Al-Maqtabah Al-Rasiyyah - Beirut, ١٩٩٨AD.